المصـــــدر : عكاظ - ملحق خاص - مناسبات
التـــاريخ : 23-09-2006 العـــدد : 14637
الصفحـات : 21 المسلسل : 45

غير واضحة تصوير

ملف صحفي

اليوم الوطني

المواطنة.. تاريخا ومفهوما

عمر طاهر زيلع

الوطن في المنظور القبلي العشائري هو المواطن: أي: مضارب الخيام حول الكلأ والماء في النموذج العربي القديم، لم يكن الوطن بصورته ومفهومه اللذين آل اليهما في الفكر السياسي الآن، ماثلا في الذهنية العربية الجاهلية قبل الاسلام، بل كان هو القبيلة أينما حلت وارتحلت بحثا عن القوت أو الأمن، او عنهما معاً، لذلك يجد المرء غموضا ان لم نقل صعوبة كبيرة في محاولة التعرف على مواطن دائمة مستقرة لمعظم القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية، بعد زوال الحضارات الشهيرة في جنوبها وشمالها، ولعل التنقل المستمر للقبائل في كل الاتجاهات منها يمثل واحدا من أهم العوامل المؤدية الى تداخل الانساب العربية بين بطونها وأفخاذها و(شعوبها) في الاسماء والانتماءات والولاءات.

وكان الوطن يعني فيما يعني: مسقط الرأس الذي لا يلبث ان يصبح ذكرى ماضية:

«بلاد بها عق الشباب تمائمي
وأول أرض مس جلدي ترابها»

او مدارج الطفولة والصبا، وملاعب الفتوة، وصبوات الشباب حين تجتمع بعض القبائل على ماء، أو مرعى، أو في صعيد آمن الى حين فتنشأ العلاقات ويصدح الشعر:

«وحبب أوطان الرجال اليهم
مآرب قضاها الشباب هنالك»

و«الا ليت شعري هل أبيتن
ليلة بواد وحولي اذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة
وهل يعبدون لي شامت وطفيل»

فالوطن آنذاك -غالبا- ناقة وخيمة وقبيلة وماء ومرعى وأمن على عرض أو كرامة، وبذلك يكون الوطن تلك الذهنة القديمة متعددا في اطار واحد كبير: عرقي (العروبة) وجغرافي (شبه الجزيرة العربية) لكن من الضروري الاشارة الى أن أعراف القبيلة القديمة (وهي أعراف تندر الكتب التي تتحدث عنها) تجعل من الفرد مواطناً له حقوق وعليه واجبات، فهو شريك في الماء والمرعى والأمن العائلي من جهة، ومشارك في حماية القبيلة وما يلزمها من تبعات في الحرب والسلم، والظروف الاستثنائية من جهة أخرى. فقد كان العرف (غير المكتوب غالبا) بمثابة «عقد اجتماعي» يجعل من الفرد (مواطنا) ومن القبيلة انموذجا مصغراً للدولة ومن المكان المؤقت (وطنا). حتى الأفراد الذين يكونون خارج القبيلة لسبب من الاسباب، ولم ينقطع حبل ولائهم لها أو ولاء لقبيلة أخرى معادية، يبقى مرتبطاً بأعراف قبيلته ملتزماً بها ومستفيداً منها.

أما في الاسلام.. الصدر الأول منه، فالوطن، أو: مسألة الوطن فلابد من الاشارة - عند التطرق لها - الى التفريق فيها بين صورتين لها، الأولى: صورتها في أذهان الناس، وصورتها في الخطاب الاسلامي نفسه بوصفه دينا - «يجب ما قبله» فالصورة للوطن عند الناس (من أسلم منهم، حينذاك ومن لم يسلم بعد) بقيت على ما هي عليه - تقريباً - مسقط الرأس، وملاعب الصبا والشباب، وأعراف القبيلة، خارج مكة والمدينة وداخلهما والرسول نفسه - صلى الله عليه وسلم - روي عنه قوله، بعد انتقاله وبعض صحابته رضي الله عنهم وما رآه من تأثر وشعور بالغربة.. قوله: «اللهم حبب الينا المدينة كحبنا لمكة، وانقل حماها (المدينة) الى الجحفة (موقع بينهما) وقوله (خيراً أو أثرا) «حب الوطن من الايمان» وهذه الصورة بعلاقاتها التي ذكرناها بين الفرد وقبيلته رغم عدم استقرار البعد المكاني الجغرافي فيها، تعد نواة

المصـــــدر : عكاظ - ملحق خاص - مناسبات
التـــاريخ : 23-09-2006 العـــدد : 14637
الصفحـات : 21 المسلسل : 45

– غير معترف بها من قبل الباحثين – لنموذج الوطن والمواطنة في أرقى صوره اليوم مع اختلاف التفاصيل في المصطلحات والمستجدات في الحقوق والواجبات في سياقها التأريخي الطويل.

أما الامر الثاني وهو صورة المواطنة والوطن في التصور الاسلامي، فالنموذج مختلف في جوهره، اذ بعد تكامل نزول آيات القرآن الكريم وتدبرها بان لقارئه ان خطابه يتجه ويوجه ببناء «الانسان الصالح» أي الانسان المؤمن، فهو خطاب «للناس كافة» و«رحمة للعالمين» وحتى أهل مكة المكرمة، وأهل المدينة المنورة، خاطبهم باسم «المهاجرين والانصار» ولم يقل: يا أهل مكة، يا أهل المدينة.. مثلا ولكنه في تفاصيل خطابه حدد واجبات وحقوق الانسان الصالح بين أفراده بعضهم بعضاً، وبينهم وبين سائر سكان الارض، كما دعا الاسلام من خلال آيات دستوره الكريم الى المدنيّة والدولة ضمناً بدلالاته وايحاءاته «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» فالتعارف لا يتم الا من خلال التجمع في صعيد واحد، والتجمع مع الوقت يصبح جمعاً فجماعة «فيد الله مع الجماعة» ومن مظاهر دعوة الاسلام الى التمدن، صلاة الجماعة والجمعة والاعياد والحج، والتواصل والتراحم، والصدقات والزكوات، وسائر العبادات والمعاملات التي هي منظومة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والشخصية لا يمكن تصور تحققها بدون إطار مكاني (وطن) وزماني (دولة قوية أمينة) وأمة: كل واحدٍ من افرادها إنسان صالح يتضمن في مفهومه (مواطناً صالحاً). غير ان الصورة بسبب عوامل كثيرة في التاريخ السياسي للمسلمين، بقيت بعد القرون الأولى منه مهزوزة ضبابية في واقعهم العملي وربما الى الآن – تقريباً – وأدى ذلك الى غياب شبه تام للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، والامتداد الجغرافي الذي يضمهما، ومنذ القرن الثالث الهجري على وجه التقريب دخل المسلمون داخل الجزيرة العربية وخارجها في فوضى اجتماعية وسياسية وصراع عبثي وغاب مفهوم الدولة والوطن والمواطنة وغاب هاجس الدولة قروناً طويلة في معظم انحاء العالم بما في ذلك أوروبا التي بدأت تصحو من غفوتها، وتفيد من تجاربها المريرة في الحروب العبثية ذاتها التي كانت تخاض في ديار العرب والمسلمين.

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي برز مصطلح «المواطن» في فرنسا عقب الثورة الدموية الشهيرة التي ظهرت صورتها الخلفية بوضوح مقززٍ في كتابات وروايات كلاسيكية تعد – فنياً – من الروائع الادبية مثل: (الألهة عطشى) و(قصة مدينتين) في الوقت الذي كانت فيه امريكا قد انتهت من صراعات الشمال والجنوب، وانجزت مشروعها الفيدرالي وتفعيل مشروعها السياسي الفذ المؤسس على محورين: تجاوز وحل ازمات ومشاكل الماضي، والكتابة العملية لتاريخ الولايات المتحدة الذي يبدأ بالاعداد الشامل من الحاضر الى المستقبل، فماضي امريكا لا يعني لها شيئا، اذن فالمستقبل هو تاريخها بداية من المواطن الامريكي داخل الارض الجديدة وانطلاقا الى أمركة العالم برمته مستفيدة من اخفاقات الامبراطوريات التي قبلها، فحل مفهوم المواطنة في الغرب كلها بالتدريج محل (الرعوي) و(المحكوم) في ظل صيغ سياسية بين مجتمعاتها تتفق في الجوهر، وتتفاوت في الاصطلاحات والامور الاجرائية.

في الشرق الأوسط عجزت الخلافة العثمانية عن تكريس مفهوم (المواطنة) في صورتها الاسلامية، أو صورتها المزدوجة، كما عجزت الشيوعية في الشرق الاقصى عن خلق النموذج العملي لصورة الدولة والمواطنة، فكانت من بدايتها تحمل جرثومة فنائها الطوباوية فهي كانت في حكم المهزوم قبل أن تسعى الرأسمالية لهزيمتها سياسياً ومعها آخرون من العرب والمسلمين الذين لم

المصـــــدر : عكاظ - ملحق خاص - مناسبات
التـــاريخ : 23-09-2006 العـــدد : 14637
الصفحـات : 21 المسلسل : 45

تكن اللعبة السياسية والتوازن القطبي الضروري لأمن العالم، ومهارة تحريك الأحجار، والتفريق بين الولاء السياسي والمصلحة الوطنية، قد تبلورت واختمرت في الذهنية السياسية بعد وباندحسار التجربة العثمانية، غمرت العرب موجات قومية طوباوية نظرية واشتراكية طوباوية أيضاً، وأفكار علمانية. ودعوات احيائية اسلامية في مصر والشام، والهند(الأفغاني، محمد عبده، المودودي، الندوي، مثلا) تحاول استنباط صيغة لدولة اسلامية. لكن كل هذه الدعوات، وتلك الموجات وان أخفقت في ايجاد حلول تطبيقية في الواقع السياسي الا انها تركت بصماتها في صورة اتجاهات، وأحزاب، ومنظمات سرية -غالبا- في واقع عربي منكوب بانقلابات عسكرية دموية الى بداية الستينيات، وبغياب الوعي عن أحابيل واستراتيجيات الحرب الباردة بين المعسكرين: الشرقي والغربي.

اما على المستوى المحلي خلال الوضع العالمي الذي أفرزته نتائج الحرب العالمية الثانية فقد وفق الزعيم العبقري الملك الراحل: عبدالعزيز بن عبدالرحمن، في ارساء قواعد حكومة مركزية قضت على التناحر القبلي في أكبر مساحة من شبه الجزيرة العربية، وتحقيق أمنها والحق يقال، كما وفق في استثمار التحولات العالمية المتجهة الى مرحلة(الدولة) ومحددات الوطن والمواطنة، خروجاً من عصور البطولات الفردية، والفروسيات العبثية.

على أن الهاجس الأمني في بعض النظم العربية والتركيز عليها صرف النظر -مؤقتاً في الأقل- عن تحديث صيغ العلاقات بين الدولة ومواطنيها، فبقي مفهوم المواطنة متعدداً وخياراً فوقياً، واستمر اليون شاسعا بين تنظيرات المفكرين، وممارسات الساسة أصحاب القرار. وظل «المواطن» نموذجاً اعلامياً وحسب، وغير مدرك تمام الادراك لما له وما عليه، عاجزاً عن استيعاب الفرق بين مفهوم المواطنة في نموذجه الغربي المستورد، ونموذجه الوطني المؤسس على أبعاده الفكرية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والوطنية بعامة فأصبح أو كاد هدفاً سهلاً للتذويب العولمي العاصف المزلزل الذي هيأت الأنظمة العربية والاسلامية مواطنيها للذوبان التدريجي فيه بقصد أو بدونه، يساعدها على الانزلاق في هذه الدوامة بعض المثقفين الذين توحي كتاباتهم هنا، وهناك بأن العولمة(الأمركة) هي الخيار الوحيد للخروج من «ورطة الهوية المتوحشة» بتعبير أحد الكتاب البارزين حيث وقع في مأزق تصور مبتور لمكونات الهوية، وفهم غير متكامل لامكاناتها الجوهرية المرنة وانفتاحاتها على الآخر.

عقب هذا البعد التأريخي لمسألة «المواطنة» أخلص الى القول: بأن بلورة مفهومها محلياً في اطار واقعنا المعيشي في عهد الملك الانسان المتسامح خادم الحرمين الشريفين عبدالله بن عبدالعزيز وفقه الله، العهد الداعي الى الاصلاح، والمحاورة والمصارحة، والمراجعة، واحترام الأفكار والآراء.. في هذا العهد الواعد ستكون بلورة مفهوم المواطنة بمعناها الخاص وتطوراتها العامة ممارسة سياسية شورويه، وقناعات داخلية تنطلق من الاعتبارات الخاصة، وتفيد من المعطيات العامة وتحدياتها. المجتمع السعودي نفسه طرف في بلورة المفهوم ايضاً. فمن المحزن أن المواطن ذاته يكاد يكون غير مدرك بدرجة كافية للتعاطي مع حقوقه المكفولة دائما من قبل دولته التي حمته حتى الآن من تقلبات عالم رجراج مضطرب دام، غير مدرك ايضاً لواجبه ورسالته في الداخل والخارج. فالمواطنة ليست مجرد انتماء ورقي وجغرافي ومصطلحي. انها مفهوم يمتد امتداد نظام الدولة ومنظوماتها وكوادرها، من الشارع حتى قاعات المحاكم وأبهاء مجالس الشورى.. وبلورة هذا المفهوم داخل اطارنا التأريخي المرن على نار هادئة أجدى وآمن من الأفكار المفتقرة الى اطار والله المستعان.